من كتب الشرق والغرب

أسطورة الحرية

خرج العالم من جحيم حرب ضروس تلظى بنارها خلال ست سنوات جلبت عليه الخراب والدمار ، وفتكت بالجنس البشرى فتكا ذريعاً لا هوادة فيه فأذاقته ألواناً من العسف والذل لم نسمع بمثلها منذ عهد جنكيز خان ، وقادته إلى هاوية اقتصادية وأخلاقية يتردى فيها للقاع ولا يتوقع أشد الساسة تفاؤلا أن ينتشل كابوس الحرب وما خلفته من صعاب قبل مضى سنين طويلة ، يعلم الله ما قد يحدث أثناءها من مشكلات عويصة ، نرى نذرها منذ الآن وقد تؤدى فى النهاية إلى كارثة عالمية ثالثة يفنى فيها الكون وتفنى فيها المدنية فتصبح أطلالا دارسة ولا تقوم لها قائمة من جديد .

ومن أروع ما جرته الحرب فى أذيالها من نتائج خطيرة ضياع القيم الروحية وتلاشى القيم الأخلاقية واضمحلال القيم والمقاييس الثابتة التقليدية . فقد فقدت أسمى الكلمات معناها ، وجردت أرفع الألفاظ عن مدلولها فأضحت جوفاء فارغة ، وأصبح الناس يحذرون من الألفاظ يطنانة الخداعة مثل الحرية والديمقراطية والعدالة الاجتماعية والمساواة الخ . . . وأصبحوا يشكون فيمن يلوح بها ويرمونه بالاغراق فى الخيال أو الامعان فى التضليل . ولئن فقدت الألفاظ معانيها وسلبت بريقها الخلاب فان السبب فى ذلك يرجع الى الاكثار من استعمالها والمبالغة فى انتحالها أعذاراً تستر تحتها أغراضاً تتنافى مع معناها المألوف . وكأن ساسة اليوم لا يرغبون فى الحيد قيد أنملة عن تلك العبارة الشهيرة التى قالها تاليران : « لقد منح الانسان النطق كى الستر به فكره » . ومما ساعد على تجريد اللفظ — مهما علا ومهما سما — من معناه المألوف بين الناس جنوح رجال السياسة على اختلاف أحزابهم ومشاربهم وقادة الفكر على تباين آرائهم بل تناقض نظرياتهم إلى التمسك بأهداب لفظ واحد — كالحرية أو الديمقراطية — والتعلق به وإقحامه فى كل جدل وفى كل مناسبة ، يتخذه كل فريق منهم حجة لتعزيز رأيه وادحاض رأى الفريق الآخر . يزعم كل منهم أنه شعاره وأنه اللواء الذى ينضوى تحته لقيادة الانسانية إلى السعادة والكمال . وبما أن المبادىء التى ينتحل اللفظ شعاراً لها ، والآراء التى يتخذ اللفظ رمزاً لها ، غالباً ما تكون متناقضة لا يمكن التوفيق بينها ، وبما أن اللفظ عينه ينقلب آخر الأمر إلى « قاسم مشترك أعظم » بين نظريات وأفكار متنافرة كل التنافر بل متضاربة كل التضارب ، فنحن نرى الناس حيارى جزعين لا يهتدون إلى الحقيقة ولا يعرفون من الأجدر بالتصديق ، ومن ثم تتبلبل العقول وتضطرب الأفكار ، ويتسرب الشك إلى النفوس ويختلط الحابل بالنابل فتفقد الألفاظ قوتها ومعناها ، شأنها فى ذلك شأن

ثوب يرتديه عدة أشخاص من طبقات مختلفة ولأغراض متباينة ، فتصبح الالفاظ خالية من أى معنى كما يصبح الثوب مهلهلا .

وإنا لو اجلنا النظر إلى الماضى وقلبنا صفحات التاريخ لادركنا معنى تلك العبارة الشهيرة التى قالتها مدام رولان — وقد ضحت بالثمين والرخيص فى سبيل نصرة الحرية إبان الثورة الفرنسية — عندما اقتيدت إلى المقصلة : « أيتها الحرية كم من جريمة ارتكبت باسمك »

ومنذ ست سنوات خاض العالم غمار حرب طاحنة للذود عن الحرية وللدفاع عن الديمقراطية . فادعى هتلر أنه يحارب فى سبيل تحرير أوربا ، وفى سبيل إنشاء نظام جديد بعد القضاء على الاستعمار البريطانى والوباء البلشفى . كما ادعى الحلفاء أنهم يدافعون عن الحرية والحق والديمقراطية ، وفى سبيل انشاء عالم يكون خيراً من العالم الحالى . وأخيراً انتهت الحرب ورفرف السلام على الأرض فتسابق قادة الأمم فى إسدال ستار كثيف على تلك الأحلام الجميلة وتلك الألفاظ المعسولة التى ظلوا يتشدقون بها طوال أيام الحرب ، وكل منهم يسعى وراء سياسة استعمارية تحقق أغراض وطنه دون مبالاة بالعدل وبالحرية للامم الصغيرة والأمم المغلوبة على أمرها ، وما أصرح المستر تشرشل حين قال وهو رئيس للوزارة إبان المعمعة : « انى لم آت الى الحكم فى هذه البلاد لتصفية الامبراطورية البريطانية » . وكل منا يذكر مهزلة « ميثاق الاطلنطى » التى طواها النسيان وقبرها الزمان .

ومن الأدلة الملموسة على قلق النفوس واضطراب الأفكار من جراء تجرد الالفاظ من معانيها حتى أصبحت فى حاجة إلى تعريف جديد يصطلح عليه الناس عامة — وقلما اتفق الناس على شىء بالاجماع — ذلك النزاع الخطير القائم اليوم بين صفوف الحلفاء المنتصرين أنفسهم حول تفسير كلمتى « الحرية والديمقراطية » . فبينما نرى انجلترا والولايات المتحدة الامريكية — يؤيدها فى ذلك الفاتيكان — ترمى روسيا السوفيتية باتباع نظم دكتاتورية تتنافى مع أغراض الحرب ، وبينما نراها تصرح بأن المواطن الروسى لا يتمتع بالحرية الفردية ولا سبيل له لابداء آرائه السياسية عن طريق الانتخاب أو الصحف أو محطات الاذاعة ، نرى من جانب آخر حملات لا تقل عنفاً فى صحف روسيا الرسمية ترمى نظم تلك الدول بالفاشية حيناً وبالدكتاتورية المالية (البلوتوقراطية) حيناً آخر ، وتأخذ عليها الروح الاستعمارية المتسلطة عليها وتعيب عليها استغلال الطبقات المالكة للطبقات العاملة استغلالا فاحشاً ينجم عنه بون شاسع بين حالة الطبقات الغنية وبين حالة الشعب الفقير رغم ما يترتب على تلك الفوارق العظيمة من ظلم واستعباد وذلة تتنافى مع مبادىء الحرية والمساواة وتكافؤ الفرص ، وتتعارض مع الشعور بالكرامة الشخصية التى يحق لكل إنسان أن يحتفظ ويفتخر بها أياً كانت مهنته .

يضيق بى المقام للتوسع فى شرح حجج كلا الفريقين حول تفسير معنى الحرية والديمقراطية ولكل منهما أسانيد قوية وأدلة ساطعة تبدو للمرء قاطعة جامعة . يخيل إلى أن الانجلوسكسون يقصدون بهذين اللفظين « الحرية السياسية » حق الفرد فى القول والانتخاب والاجتماع ، وحق الصحافة فى نشر ما يروق لها وحق الشعب فى تأليف أحزاب سياسية مختلفة ينتمى الفرد إلى ما يفضله منها ، وحق المعارضة فى أن تمثل فى المجالس النيابية الخ .

ويخيل من جهة أخرى أن روسيا السوفيتية تقصد بالحرية والديمقراطية الحرية الاقتصادية ، أى تكافؤ الفرص لكل فرد من الأفراد ، وإلغاء الفوارق بين الطبقات ، تلك الفوارق التى

تنشأ غالبا عن المزايا الموروثة وعن استغلال طبقة قليل عديدها لطبقة الشعب العامل ، أى منح تسلط أقلية على أغلبية . كما يقصد الروسى بالديمقراطية منح كل شخص حسب عمله ، ومنح كل فرد الحق كاملا فى التعليم والعلاج بلا أجر يؤديه ، ومنح كل فرد الحق فى العمل والانتاج بعيداً عن شبح الفاقة والبطالة وهما داءان قديمان منتشران فى أوربا الغربية وفى أمريكا وفى روسيا نفسها قبل الثورة ، ينتجان عن سوء توزيع الثروة القومية ، كما أبان ذلك كارل ماركس ولينين فى مؤلفاتهما .

تناول الكتاب والمفكرون النزاع القائم حول معنى لفظى الحرية والديمقراطية ، ولكل فريق من الفريقين — الروسى والانجلوسكسونى — أنصاره ومؤيدوه .

وقد نشر أخيراً فى الولايات المتحدة الأمريكيه كتاب عن روسيا السوفيتية وعن نظامها السياسى والاقتصادى ، تناول مؤلفه فيه بحث مدى ما يتمتع به الفرد من الحرية فى روسيا وانتهى به البحث بعد زيارة لتلك البلاد إلى الجزم بأن النظام السوفيتى نظام دكتاتورى بحت لا أثر فيه لاية حرية فردية . أما ذلك الكتاب فعنوانه « تقرير عن الروس *Report on the Russians* » لمؤلفه الصحفى الأمريكى الشهير وليام وايت William White . وقد أثار هذا الكتاب ضجة كبيرة فى أمريكا وانقسم الرأى العام بشأنه إلى قسمين بين ناقد له ومثن عليه . وتعرض له الكتاب فى الصحف بالغلو فى التقريظ أحياناً ، وبالغلو فى الطعن أحياناً أخرى ، شأنه فى ذلك شأن كل ما تجود به قريحة المفكرين فى كل بلد حى يعنى أهله بالبحث والتمحيص للوصول إلى الحق والوقوف على القيم الحقيقية للأفكار . وقد بلغ الجدل حول هذا الكتاب حداً لم يبلغه حول سائر المؤلفات الأخرى التى تناولت الموضوع نفسه ، إذ طالب فريق من الرأى العام الأمريكى — يؤيده فى ذلك فئة من الصحفيين — بحبس الكتاب عن التداول ومنع نشره ، ولكن السلطات الأمريكية لم تجب تلك المطالب المتطرفة احتراماً لمبدأ حرية الفكر .

وغنى عن القول أن رأى جمهرة الشعب الأمريكى فى نظم الحرية والديمقراطية المتبعة فى روسيا لا يختلف كثيراً عن الآراء التى أذاعها وليام وايت فى مؤلفه .

ولنسمع الآن صوت الجرس الآخر كما يقول الفرنسيون ، ولنبحث عن آراء بعض الكتاب الغربيين — ولا أقول بعض الكتاب الروس — ممن زاروا أمريكا التى يعدها العالم حصناً منيعاً للديمقراطية تذود عن الحرية الفردية وعن حقوق الانسان . بل أكثر من ذلك لنستعرض آراء بعض الكتاب والمفكرين الأمريكيين أنفسهم فيما يتمتع به المواطن الأمريكى من حرية فردية ، ومدى تلك الحرية وأثرها فى حياتهم الاجتماعية ونظمهم السياسية الديمقراطية .

ظهر فى باريس فى عام ١٩٣٨ كتاب بالفرنسية لفت الأنظار بعنوانه الغريب « الولايات المنقسمة *Les Etats-Désunis*, Denoël, ed. » لمؤلفه فلاديمير بوزنر Vladimir Pozner وهو كاتب فرنسى من أصل روسى . أما وجه الغرابة فى هذا العنوان فيرجع إلى أن موضوع الكتاب يتناول رحلة قام بها مؤلفه إلى « الولايات المتحدة الأمريكية » فى عامى ١٩٣٦ و١٩٣٧ — وأما وجه الغرابة فى الكتاب نفسه فيرجع إلى أن المؤلف لم يحرره بأسلوبه الشخصى ولم يقحم نفسه فى الموضوع الذى تناوله بسرد مشاهداته أو ملاحظاته الشخصية مثلا ، وإنما اكتفى فى أغلب الأحيان بنقل مقتطفات من الصحف الأمريكية المختلفة تروى وقائع معينة

متنوعة دون أن يعلق عليها الكاتب أى تعليق ، كما عنى بذكر اسم الجريدة وتاريخ صدور العدد . وقد قابل المؤلف عدة شخصيات أمريكية فى عالم الأدب والفكر فسجل فى كتابه أحاديثهم التى أدلوا بها إليه .

وقد استعرض فلاديمير بوزنر بعض المشكلات الأمريكية مبيناً علاقتها بمبادئ الحرية والديمقراطية كما يستسيغها الأمريكيون تاركا للقارئ مهمة استخلاص حكمه عليها من الوقائع التى وردت فى الصحف الأمريكية نفسها ، وتاركا له استنباط المغزى الذى يروقه من هذه المقالات وتلك الأحاديث .

تناول الكاتب بطريقته الفريدة فى نوعها مسائل شائكة وأبان الحلول التى لقيتها تلك المسائل فى العالم الجديد . تناول مثلا مشكلة البطالة فى الولايات المتحدة ، وأظهر خطرها الاجتماعى — إذ بلغ جيش العمال المتعطلين عدداً يربى على اثنى عشر مليونا قبل الحرب طبقاً للاحصائيات الأمريكية نفسها — وأوضح أن أولئك العمال لا يتمتعون إلا بقسط متواضع من الحرية لا يعدو حرية التجول نهاراً للبحث عن عمل ، والنوم ليلا تحت جسر من الجسور . وقد اشتهر « كوبرى بروكلين » فى نيويورك بعدد العمال المتعطلين الذين تؤويهم أعمدته .

ثم تحدث عن مشكلة الزنوج فى أمريكا ، وهى مشكلة عويصة لم يوفق أولو الأمر لحلها إلى الآن ، وأبان مايلقون من عسف وذل وما يساموته من عنت وهوان وازدراء مع أن عددهم يربى على العشرة الملايين ، ومع أنهم مواطنون أمريكيون فى عرف الدستور .

ثم خاض المؤلف فى مسألة استغلال الشركات الرأسمالية القوية الجبارة لطبقة العمال الضعيفة المستسلمة ، ووصف حالة عمال المناجم فى ولايات الغرب الأمريكى وصفاً دقيقاً رائعاً ، أتى فيه على تفاصيل حياتهم وطرق معيشتهم وكشف أجورهم الزهيدة وسوء حالتهم البدنية لانعدام بعض الوسائل الصحية التى لا غنى عنها فى صناعة المناجم مما يترتب عليه إصابة كثيرين منهم بمرض السل وهم لا يزالون فى ريعان الشباب . ثم استطرد فأشار إلى سيف التهديد بالفصل المسلط فوق رقاب من تحدثهم أنفسهم بالاحتجاج لعلمهم علم اليقين بأن جيش العمال المتعطلين مستعد فى أى وقت للحلول محلهم بأقل من أجورهم . ثم ساءل الكاتب عما بقى للحرية الفردية من أثر لدى هؤلاء العمال وأولئك الزنوج .

وأهم ماجاء فى هذا الكتاب — بل أغرب ما حواه — تلك الأحاديث التى أدلى بها إليه ثلاثة من قادة الفكر ومن أئمة الأدب الأمريكى الحديث حين أثار معهم موضوع الحرية والديمقراطية .

أما هؤلاء الثلاثة فهم :

أولا — جون دوس باسوس John Dos Passos الكاتب والمفكر الشهير ، ألف عدة كتب فى قالب قصصى عن آثار الحرب الماضية فى نفس الجندى الأمريكى بوجه عام . أهمها « ثلاثة جنود » و « الولايات المتحدة الأمريكية » و « ١٩١٩ ».

قال جون دوس باسوس :

« نحن بلاد هجينة بل أكثر الأقطار هجنة . إننا مهد الفاشية ، وقد أخذ الألمان كثيراً « عن بعض المفكرين الأمريكيين . لقد تأثرت أوربا كثيراً بتعاليم الولايات المتحدة المنافية « للمدنية ، وأقصد بذلك أولئك الذين هجروا إلى هناك بعد أن عاشوا هنا ردحاً من الزمن

« فادخلوا فى أوربا ديدن الخضوع للقوة بعد أن فقدوا أنفسهم التقاليد الأوربية . لقد كانت
« جمعية « الكو ـ كلوكس ـ كلان » الأمريكية « Ku-Klux-Klan » أول مظهر منظم
« من مظاهر الفاشية . إن ألمانيا الهتلرية لتبدو نعيم الحرية إذا قيست بمدننا الصناعية العظيمة .
« لقد انتشرت الفاشية عندنا إلى حد أشعرنا أن لدينا إزاءها شيئاً من المناعة . بلادنا شاسعة
« وتضرب فيها الفوضى أطنابها بحيث لم يتمكن كبار رجال الصناعة من الاتفاق فيما بينهم
« لتفوق سلطة كل منهم .
« الشعور بالفوارق بين الطبقات الاجتماعية غير منتشر بين العمال الأمريكيين ، كما ينقصهم
« ذلك التضامن التقليدى الذى يربط العمال الأوربيين بعضهم ببعض . لقد شاهدنا حركات
« رائعة ولكنها لم تدم . إن مصانعنا العظمى لا تقر بوجود عمل لا غنى لها عنه ، لديها
« الآلات وبعض الأخصائيين وكفى » . .

أما ثانى أولئك الكتاب فهو وولدو فرانك Waldo Frank وقد أدلى بالحديث الآتى :

« إننا شعب عجيب . فعظم الأمريكيين لا يفكرون ، وإذا أراد أحدهم أن يفكر فلا أقل من
« أن يكون له عقل الجبابرة حتى يستطيع التفكير وهو مجذوب تتلقفه الصحف والراديو والسينما .
« إن التفكير فى أمريكا عملية تتطلب جهداً شاقاً لا يحتمله إلا القليل من الناس ، ولا يغرى
« إلا بعضهم . لقد خلقت وسائل اللهو وإذاعة الأخبار الجارية لدى الأمريكيين عادة البحث
« السطحى . وللآن لم يهضم الجمهور التشريع الحديث المعروف باسم « نيوديل New Deal »
« ولم يفهمه المفكرون كذلك . وعلى العموم فان مفكرينا لا يفكرون أكثر من سائر الناس .
« إننا حقاً لشعب عجيب . إذا جاءنا نظام الفاشية يوماً ما فانه سوف يتخذ شكلا خاصاً ،
« سوف يستند على الدستور فى كل أعماله فيصبح نظاما فاشيا دستورياً نيابيا . لن يرتدى
« أعضاء ذلك الحزب قمصاناً سمراً ، وإنما سيكتفون بالقمصان الثقيلة ذات النشا ، سيكون
« نظام فاشية بملابس السهرة .
« أصبح العنف والاستخفاف بالقوانين من تقاليدنا القديمة . ومن شواذ الشعب الأمريكى
« الميزة له تقديسه الدستور وعدم احترامه للقانون فى آن واحد . وتساعد حالة مدنيتنا
« الحاضرة على تشجيع هذا العمل ، إذ لدينا عدد هائل من العمال المتعطلين ينحدرون رويداً
« رويداً نحو الفاشية ولأن الالتجاء للعنف عادة مألوفة عندنا » .

أما ثالث أولئك الكتاب فهو « تيودور درايزر Theodore Dreiser » مؤلف رواية
« مأساة أمريكية » وقصص أخرى شهيرة ظهر بعضها على الشاشة البيضاء .
قال تيودور درايز عن الحرية فى أمريكا :

« الصحافة والقضاء والاذاعة كل شىء فى أمريكا تابع للشركات الرأسمالية المسماة « ترست
« Trusts » . نشرت يوما كتاباً سميته « أمريكا المفجعة *L'Amérique tragique* » ولكنه
« حذف بأكمله تقريباً . يالها من بلاد مخيفة حيث تسيطر فئة من « وول ستريت Wall Street »
« (حى المال والبورصات) على صناعة السينما وتفرض عليها رقابتها . ومن المحال عليك أن

« تتحدث عن السياسة أو المسائل الاجتماعية من محظات الاذاعة . وفى الواقع أنه من المحال
« عليك أن تتحدث منها عن أى شيء عدا السخافات . طلب منى ذات يوم أن أذيع حديثا
« بالراديو . وقد كان فى وسعى أن ألقى سلسلة محاضرات عن موضوعات شتى يهمنى التحدث
« عنها فاستفهمت أأنا حر فى اختيار ما أتحدث عنه ؟ فأجبت أن حديثى سوف يراجع قبل
« إلقائه فأبيت . وكثيراً ما أدليت بعدة أحاديث إلى مراسلى صحيفة « نيويورك تايمس »
« و« هرالد تريبون » وصحف اخرى . وكلما ذكرت لهم شيئاً ذا مغزى رأيت الصحف
« تتغاضى عن نشره . إن رجال المال فى أمريكا يسيطرون على كل شيء فهم يسيطرون على
« الصحافة والاذاعة والسينما ويسعون إلى فرض نفوذهم على المدارس ليهيمنوا على الفرد
« وليكتفوا بتعليمه تلك الجمل الدارجة المحفوظة المعروفة باسم « سلوجان Slogans » حتى
« لاينفض الناس عن أنفسهم غبار الاستبداد .

« لقد اتضح أن رجال المال هم وحدهم القادرون على إدارة دفة العالم اليوم . كلا !
« لا تعتقد أنى فقدت كل أمل ، ولكنى أجابه الحقائق بصراحة وأشهد تفشى داء كداء
« السرطان يهدد الملايين من البشر ولا أرى من يحاول اكتشاف جرثومته ولا من يسعى
« لمقاومته أو القضاء عليه فى حين يستشرى الداء ويقتل . وما الذى سوف يؤدى إلى
« اكتشاف يقضى على هذا السرطان ؟ الرعب » .

والآن لاختتم مقالى بوصف مؤلف كتاب «الولايات المنقسمة» لأهل مدينة «واشنجتون» وهو وصف لا يخلو من الفكاهة . قسم فلاديمير بوزنر معظم سكان تلك المدينة إلى أربعة أقسام : الربع الأول — موظفون لا يعملون شيئا يذكر ، ورجال السلك السياسى (الدبلوماسيون) وهم لا يعملون شيئاً البتة ومثلهم رجال « للطبقة الراقية » والثانى — رجال الصحافة ولا هم لهم صباح مساء إلا وصف أعمال الفئة السابقة . يليهم الثالث وهم الزنوج ويربى عددهم على مئة وستين ألفاً ، وهؤلاء يتمنون عملا ويسعدون لو عثروا عليه ، ولكن ثلاثة أرباعهم متعطلون . أما الربع الباقى فانه يعمل ،

تلك مجالة عن الحرية والديمقراطية كما يتخيلها بعض الناس وكما يطبق مبادئها البعض الآخر ، وهى تصور لنا ما يراه أنصار الديمقراطية بعضهم فى بعض مندفعين بالطبع إلى شيء من الغلو فى الحكم والتقدير . فعلينا نحن أن نقف من هذين المذهبين موقف الانصاف ، وأن نتبين وجه الحق فيهما . وأغلب الظن أن الحق إنما هو بين بين

فؤاد وصفى أبو الرقب